الرجـل

المختار:

عـاش فى العصـور الماضيـة كثـير من الـعظماء الذين تواترت الأنبـاء بأوصافـهم السماعيـة وأوصافهم المرسومـة فى الصور والتماثيل. غـير أننا لا نعرف أحـدا من هؤلاء العظماء تمت صـورته السماعـية أو المنقولة كـما تمت صورة محمـد ﷺ من رواة أصحابه ومعاصريه، فنحن نعـرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبـعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التى نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقـة، لأن هذه الصور والتـماثيل قـد تحكى للناظرين مـلامح أصحابـها ومعارفتهم الظاهرة، وقـد تحكى للمتفرسين شيئا من طبـائعهم التى تنم عليها سيماهم، إلا أنها لا يحفظهم لنا كـما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبى فى كل حالة من حـالاته وكل لمحة من لمحاته: فى سيمـاه وفى هندامه، وفى شرابه وطعـامه، وصلاته وصـيامه، وحله ومـقامه، وسكوته وكـلامه، لأن الذين وصفوه وأحـبوه وأحبوا أن يقتدوا به فـتحرجوا فى وصفه كمـا يتحرج المرء فى الاقـتداء بصـفات النجـاة والأخذ بأسـباب السـلامة، فكانت أمـانة الوصف هنا مزيجـا من العطف والتدين، وضربا من أتبـاع السنن والفروض، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى، فيقـول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قـصد التحريف بين القولين.

وخلاصـة المحفوظ من الروايات المتـواترة أن النبى ﷺ كان مـثلا نادرا لجمال الرجـولة العربية، كان كشـأنه فى جميع شمـائله مستوفيـا للصفة من جمـيع نواحيها فـرب رجل وسيم غيـر محبوب، ورب وسـيم محبوب غـير مهـيب، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهـابونه ولا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء، أما محمد ﷺ فقد استوفى شمائل الوسامة

والمحبة والعطف على الناس فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلا أزهد اللون، عظيم الهامة، مفاض الجبين، سبط الشعر، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب أدعج العينين فى كحل، أفنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين، أسيل الخد، ضليع الفم عزيز اللحية، جميل الجيد، عريض الصدر، واسع ما بين المنكبين ضخم الكراديس، طويل الزندين رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، لا بالمشذب ولا بالقصير، مرعوبا أو أطول من المربوع، معتدل الخلق متماسكا لا باليدين ولا بالنحيل..

وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلاً يصفه الأقدمون بأنه "حى القلب" ويصفه المحدثون "بالحرمة والحيوية"..

يمشى فكأنما يتحدر من جبل وينحط من صبب، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعا كأنما ينشط بجمله جسمه، ويلتفت كله، ويشير فيشير بكفه كلها، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى، ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه باشداقه، وربما حرك رأسه وعض شفته فى أثناء كلامه وهو على الحركة الحية جم الحياء: أشد حياء من العذراء نضاح المحيا إذا كره عرف ذلك فى وجهه، وإذا رضى تطلقت أساريره وتبين رضاه.

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء فى هذه البنية الجميلة.. فكان ﷺ يصرع الرجل القوى. ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير، ويداعب من يحب بالمسابقة فى العدو، قالت عائشة رضى الله عنها "خرجت مع النبى ﷺ فى بعض وأنا جارية لم أحمل اللحم فقال ﷺ: تقدموا.. ثم قال: تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته، فسكت.

"حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال ﷺ للناس:

تقدموا.. فتقدموا.. ثم قال: تعالى أسابقك فسابقته فسبقنى فجعل ﷺ يضحك ويقول: هذه بتلك!".

وها بعد أن قارب الستين إنها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال.

وتجلت هذه الأريحية فى علاقته بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه. فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسى، ورحمت كل ضعف، وامتزجت بكل شعور.

قال أنس بن مالك رضى الله عنه: "دخل النبى ﷺ على أمى فوجد أخى أبا عمير حزينا. فقال: يا أم سليم.. ما بال أبى عمير حزينا؟.. فقالت: يا رسول الله مات نغيره. تعنى طيرا كان يلعب به.

فقال ﷺ: أبا عمير!.. ما فعل النغير؟.. وكان كلما رآه قال له ذلك".

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها، فالسيد يزور خادمة فى بيته، ويسأل أنه عن حزن أخيه، يواسيه فى موت طائر ولا يزال يرحم ذاكره كلما رآه.

وكمثل هذا عطفه على الضعف البشرى فى رجل مثل عبد الله الحمار الذى لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة، فكان النبى ﷺ يحده فى الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه.

***

قبوله للدعابة:

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة، لا يقبل منها أحدا ولا يراه النبى فيتمالك أن يبتسم.. وربما قصد النبى ببعض هذه الدعابات لطمعه

فى حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه: جاء أعرابى إلى الرسول فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعيمان: "لو نحرتها فأكلناها؟.. فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم النبى ﷺ حقها" فنحرها نعيمان. وخرج الأعرابى فرأى فصاح: "واعقراه يا محمد! فخرج النبى يسأل: "من فعل هذا؟"

قالوا: "نعيمان".. فاتبعه النبى حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد فأشار إليه رجل ورفع صوته: "ما رأيته يا رسول الله" وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال: "ما حملك على ما صنعت؟" قال: "الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمرونى!" فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك.. ثم غرم ثمن الراحلة..

ونعيمان هذا هو الذى باع عاملا لأبى بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ واصل إلى النبى لا محالة.

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عاملة على زاده. فجاءه نعيمان وطلب إليه طعاما فأباه عليه حتى يأتى أبو بكر فأقسم نعيمان ليغيظنه. وذهب إلى قوم فقال لهم: "تشترون منى عبدا لى؟" قالوا: "نعم" قال: "إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: لست بعبده أنا رجل حر.. إلى أشباه ذلك. فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا على عبدى.." قالوا: "لا.. بل نشتريه ولا ننظر إلى قوله" فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم أداهم إياه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحفلوا بقوله، وجعلوا كلما قال لهم: "أنا حر!.. إنه يتهزأ ولست أنا بعبده" سخروا منه وقالوا: بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة.. فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيقتدوه ويعيدوه.

ثم قدمـوا على رسول الله فضحك من فـعلة نعيمان، وجـعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه.

من سعة الـنفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بأعظمهـا جدا ووقارا وهو إقـامة الأديان وإصـلاح الأمم وتحويل مـجرى التـاريخ ثم يطيب نفسـا للفكاهة ويطيب عطفـا على المتفكـهين ويشركـهم فيـما يشـغلهم من طرائف الفراغ فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة.. ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وإن نهضت بالعظيم من الأعمال.

فاستراحة مـحمد إلى الفكاهة هى مقياس تلك الآفاق النفـسية الواسعة التى شملت كل ناحيـة من نواحى العاطفة الإنسانية وهى المقـياس الذى يبدى من العظمة ما يبديه الجد فى أعظم الأعمال.

وكان محمد يتفكه ويمزح كـما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح، وكان دأبه فى ذلك ك

أبه فى جـميع مـزاياه: يعطى كل مزية حـقهـا ولا يأخذ لهـا من حق غـيرها، أو يعطى الفكاهة حـقهـا ولا ينقص بذلك من حق الصـد والمروءة. فعـبد الله الخمار كـان يجد من قلب النبى عطف القلب الكبـير على نقيـصة الضعف فى الرجل السكيـر، ولكنه كان يجد من تأديب النبى جـزاء الشارب الذى يخالف الدين ويخل تماديه بالشريعـة عطف يجمل بالنبى على أحسن ما يكون، لأنه يجمل بالإنسان على أفضل ما يكون.

وإذا مزح محمد فإنما يعطى الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة. فكان مزاحه آية من آيـات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الإنسانية، ولم يكن بالنقيض الذى يستغرب من نبى كريم.

قال لعـمته صفـية: لا تدخل الجنة عجـوز!.. فبكت، فقـال لها وهو

يضحك: الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة ٣٥ -٣٧].

ففهمت ما أراد من الرضى والنور.

وطلب غليه بعضهم أن يحمله على بعير فوعده أن يحمله على ولد الناقة فقال: يا رسول الله!.. ما أصنع بولد الناقة؟.. فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟

وكان ﷺ يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهى عجوز: "غطى قناعك يا أم أيمن!".

وسمعها فى يوم خنين تنادى لكنتها الأعجمية: "سبت الله أقدامكم!" فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغى إليها ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف، وأقبل عليها يقول: "اسكتى يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان!" فكانت هذه الدعابة فى ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت سيد الفصحاء على تلك اللكنة البرئية.

***

أريحية محمد:

هذه الأريحية الفياضة هى الحيلة الباطنة التى بها حلية محمد فى عيون الناس، وهى جواب محمد لم كان له فى قلوبهم من حب وإعظام، أو هى الآصرة التى تجمع بين قلبه وتلك القلوب فى نطاق الأسرة الإنسانية. يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب.

سمت يقابل العيون بجمال.

وأريحية تقابل النفوس بجمال.

وقد سرت هذه الأريحيـة فى صميم طويته فامتـزجت طواعية وارتجالا بجميع خصاله له وجميع علاقاته بالناس ولاسيما الضعفاء والمكسورين. فكان أحرص إنسـان على جبـر القلوب وتطيب الخواطر وتوخى المؤاسـاة واجتناب الإساءة، يتـفقد أصـحابه كـبارا وصغـارا ويسأل عنهم، ويتـحدث إلى ذوى الأقدار ودعامة الناس فلا يحسب صغـيرهم أن أحداً أكرم عليه منه، ويتحدث إليه مـن شاء يقطع عليـه حديثه وإن طال. وإذا انـتهى إلى قوم جلـس حيث ينتهى به المجلس، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها..

ومن سننه التى اتبعها وأوصى بإتباعها أن يجيب دعوة من دعاة ولا يرد دعوة عبـد ولا خادم ولا أمة ولا فير، وفى ذلك يـقول من وصاياه فى آداب الولائم والمحافل: "إذا اجتمع الداعـيان فأجب أقربهما بابًا، فـإن أقربهما بابا أقربهما جوارا، وإن سبق أحدهما فأجب الذى سبق".

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامة. وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد يصلى ليسأله عن حاجاته وياقاه بالتحية.

يتقى الغـضب جهده ويعالجه إذا أحـسه بعلاج من الروح، فيـقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسـد، فيجلس إذا كان قائما ويضطجع إذا كان جالسا، ويأبى الحرمة التى ينزع إليها وهو غضبان.

***

آدابه الاجتماعية:

وكان فى آدابه الاجـتماعـية قدوة الرجل المهـذب فى كل زمان. فلم ير قط مادًا رجليـه بين أصحابه، وتعود كلمـا زار أحدا ألا يقوم حتى يسـتأذنه، ولم يكن ينفخ فى طعـام ولا شراب ولا يتنفس فى إناء، وإذا أخـذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيـما، وربما نهض بالليل فيشـوص فاه بالسواط، ولا

يزال يستاك ويوصى بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب وتيحرى النظافة ويقول لصحبه: "اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار".

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل فى شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور فيأكلون ف جيل بأصابع اليد ويأكلون فى الجيل الآخر بالشوكة والسكين ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض وهى عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب فى كل أمة وفى كل زمان.. فلم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل فى أصدق معانيه.. صاحب هذا السمت رسول..

وصاحب هذه الآداب رسول..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة فى الأنظار وسماحة فى القلوب.. فالسماحة هى الكلمة الواحدة التى تجمع هذه الخصال من أطرافها، والسماحة فى الصفة التى ترقت فى محمد إلى ذروة الكمال.

ومن يكون الرسول إن كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة؟ الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس، لأن عمل الرسول الأخير الأول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقدر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم، ومن كان هذا عمله فينبغى أن تكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغنى عن الوازع وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه. وهذه هى السليقة السابقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير.

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول، لأنها علامة من داخل السريرة.. وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تعروه.. وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل.. يعطيه هذه المرتبة من يدين بالإسلام ومن يدين الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل.

فليس للنوع البشرى أصل من أصول الفضائل يرمى إلى مقصد أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التى كان محمد قدوة فيها للمقتدين.

***

عزيمة الزهد والإيمان:

وليس أولى بالحب والتبجيل من يطلب خير الناس ويزهد فى نعمة العيش وهى بين يديه.

فقد ثبت أن محمدا لم يستمع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعا حتى مضى لسبيله، وقالت عائشة رضى الله عن عنها: "لقد كنت أبكى رحمة له مما أرى به وأمسك بيدى على بطنه مما ارى به من الجوع" وأقول: "نفسى الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك" فيقول: "يا عائشة! مالى وللدنيا.. إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو اشد من هذا".

وقالت زوجة أم سلمة تصف ما وجدته فى بيته ليلة عرسها "..... فإذا جرة فيها شىء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقد وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه".

رآه عمر وقد أثر فى جنبه حصير فقال له: "يا رسول الله! قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس الروم قد سمع عليهم وهم لا يعبدون الله"

فاستوى جالسا وقال: "أفى أنت يا ابن الخطاب؟.. أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا!".

ولقد مات ودرعه مرهونة، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار وهو قليل.

فما عسى أن يقول قائل فى قدر هذا الرجل.. آمن به أو لم يؤمن؟

أيقول إنه كان رسول وإنه كان يعلم أنه رسول فصدع أمر به واحتمل ما احتمل فى سبيل طاعته وفى سبيل إصلاح خلقه؟

تلك إذن مرتبة الأنبياء التى تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله.

أم ينكر النبوات ويقول إنه أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته إلى خلقه، ولكنه تجرد لهدايتهم فى غير مآرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرا ولا ينتظر فى الدنيا ولا الآخرة جزاء؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويغار فى هدايتهم تلك الغيرة فهو إنسان ممسوخ الضمير.

***

فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال: فى المقام الأول بخلقته، فى المقام الأول بنيته، وفى المقام الأول بعمله، وفى المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له فى دعوته.

ونرى عن يقين أنه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان إلا استزادة لأسباب الإيمان وشحذا للعزيمة فى سبيل ذلك الإيمان، وإعذار إلى الله وإلى الناس فيما تجرد له من إصلاح.

لأن محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا حاضا لأحد على كراهتها

والإعراض عنها. فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره..

كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضا من الأغراض التى نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس..

فليكن إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء.. وتلك راحة ضميره، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون.

إذا هدى الناس واستمع بالعيش خشى أن يحسب المتعة من آماله. وإذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هى جملة الآمال وغاية الآمال. فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه، وليتم ذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس..

وما حساب أولئك جميعا؟

حساب رجل هو وازع نفسه فى السر والعلانية، وهو أحق الناس أن يقيم وازعًا للناس.

رجل ولا كمثله الرجال.

* * *